يوزع مجانا وللبيع

مشروع طباعة الكتب السلفية ١٣٨

قواعد في

فقه القلوب

جمع

د. صالح بن عبد العزيز بن عثمان سندي

غفر الله له

مشروع طباعة الكتب السلفية ١٣٨

قواعد في فقه القلوب

جمع

صالح بن عبد العزيز بن عثمان سندي

غفر الله له

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله على سبوغ نعمائه، وترادف لطفه وآلائه، والصلاة والسلام على نبينا محمد خاتم رسله وأنبيائه، وعلى آله وصحبه وأوليائه، أما بعد:

فإن شأن القلب شأنٌ عظيم؛ خُلِقَ للسفر إلى الله تعالى ومحبته والإقبال عليه، وهو موضع نظره سبحانه، ووعاء التقوى والعقل، ومحل الابتلاء والتمحيص، وموطن الذكر والغفلة، والأصل أن ما يقوم به من أعمالٍ أهمُّ مما يقوم بالجوارح؛ إذ هو ملك الأعضاء، والعبودية عليه أولًا، وعليها تبعًا، وبصلاحه تصلح، وبفساده تفسد، إذا استنار استنارت، وإذا أظلم أظلمت.

إن للقلوب أحوالا ودخائل، وأسرارا وعجائب؛ فهي تُبصر وتعمى، وتصِح وتمرض، وتحيا وتموت، وتبيضّ وتسودّ، وتستقيم وتزيغ، وتتطهر وتتنجس، وتنشرح وتضيق، وتلين وتغلظ، وتثبت وتتقلب، وتغتني وتفتقر، وتأتلف وتتنافر!

كما أن لها مؤثرات تؤثر فيها، وأقفالا وأكنة تُجعل عليها، وقد يُختم عليها ويُطبع.. في مقامات ومباحث، ومسائل وأحكام يعسُر إحصاؤها، مع جليل قدرها.

وليس يخفى أن «**فقه القلوب**» وأحوالِها وأحكامِها: رتبةٌ رفيعة مُنيفة؛ فمباحثه كريمة شريفة، وفوائده جليلة لطيفة، وحريٌّ بكل مسلم يسعى للنجاة أن

يكون ذا عناية به؛ لشدة حاجته إليه؛ إذ مدار السعادة والشقاوة على استقامة القلب أو زيغه.

وقد يسر الله سبحانه في هذه الأوراق جمعَ قطرةٍ من بحرها، وشذرةٍ من عقود دُرّها.

أردت بها أن تكون ذكرى لي -ولمن شاء الله-، وسببًا لإيقاظ القلب من غفلته، وأن يُراعى حق رعايته.

فليس أنفع للعبد من أن يكون قلبه حيًّا زكيًّا، ليّنًا صحيحًا؛ فهذا -ومقلبِ القلوب- عَلَمُ نجاته، وعنوان سعادته[١].

---

(١) **تنبيه**: تحسن الإشارة إلى أن **القلب** يُطلق ويُراد به معنيان:

الأول: **القلب الحِسّي**، وهو العضو المعروف؛ أعني: العضو اللحمي الصنوبري الشكل، المودع في الجانب الأيسر من الصدر، وهو العضو الرئيس في الجسم؛ لأنه المضخة التي تمده بالدم.

ولا يختص بالإنسان؛ بل حتى الحيوان له قلبٌ بهذا المعنى.

والقلب بهذا المعنى هو ما يبحث في شؤونه الأطباء وعلماء التشريح ونحوهم.

الثاني: **القلب المعنوي**، وقد عُبّر عنه بأنه: لطيفة ربانية روحانية، لها بالقلب الحسي تعلق واتصال، الله أعلم بكيفيته.

وهذه اللطيفة (القلب المعنوي) هي حقيقة الإنسانية -أي أنه بها كان الإنسان إنسانًا-، وبها يستعد لاستقبال الأوامر واجتناب الزواجر، وهي منبع الأخلاق المرضيّة والأحوال الرديّة.

انظر: التبيان في أيمان القرآن ٦٢٦، والرد على الشاذلي ١٢٤، ومجموع الفتاوى ٩/ ٣٠٣، ومختصر الفتاوى المصرية ١٠٠، وتفسير الألوسي ١/ ١٣٧.

وهذا المعنى هو المراد بالقلب في هذا البحث، بل وفيما جاء في القرآن والسنة ومباحث =

وقد رأيت أن أجعل المادة العلمية في قواعد عشرٍ -ليسهل حفظها-، يتبعها شرحٌ وتفصيل موجز، متوخيا -في الاستدلال- إيرادَ ما ثبت من الأحاديث.

وجُل ما ههنا مستفادٌ من كلام الأئمة: ابن تيمية وابن القيم، ثم ابن رجب؛ بنَصِّه أو بمعناه.

والله تعالى المسئول أن يجعلها مباركة نافعة مقبولة عنده، وأن يدخر لجامعها وقارئها الأجر يوم لقائه، وأن تكون حجةً لهما لا عليهما.

والحمد لله رب العالمين.

= _____

العلماء إذا تعلق الكلام به مدحًا أو ذما، أو من حيث بيان حياته ومرضه، وصلاحه وفساده ونحو هذا.

القاعدة الأولى:

زكاةُ القلبِ مثلُ نماءِ البدن[١]

الزكاة في اللغة: النماء والزيادة في الصلاح، يقال: زكا الشيء إذا نما في الصلاح؛ فالقلب يحتاج أن يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح ويفلح، كما يحتاج البدن أن يُربَّى بالأغذية المصلحة له، وكثير من الناس يسعون ليلهم ونهارهم في العناية بأبدانهم وإصلاحها وتغذيتها ودفع الآفات والأمراض عنها، وربما قطعوا في هذا المفازات، وأنفقوا الأموال الطائلة -وهذا لا حرج فيه شرعا شرعا-؛ إلا أن المؤسف أنهم لا يبذلون بعض هذا الجهد في العناية بقلوبهم وتغذيتها وإصلاحها والسعي في شفائها من أمراضها، مع أن شأنها أعظم؛ فإنها محل نظر ربهم، وعليها مدار سعادتهم أو شقائهم؛ قال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩-١٠]، وقال النبي ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم -وأشار بأصابعه إلى صدره-**»[٢].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى ١٠/ ٩٦، إغاثة اللهفان ١/ ٤٦-٤٩.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤). قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ومعلومٌ أنه لم ينفِ نظر الإدراك؛ لكن نظر المحبة". الاستقامة ١/ ٤٢٥، ومثله في الفوائد لابن القيم ١٨٥.

إن السعادة مقرونة بتزكية القلب وجودا وعدما، فَمَا أَصْغَرَ النُّفُوسَ وأهلكها مِثْلُ مَعْصِيَةِ اللهِ، وَمَا كَبَّرَهَا وَشَرَّفَهَا وأسعدها مِثْلُ طَاعَةِ اللهِ، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [الأعراف:١٥٦] فالزكاة هنا -كما جاء عن ابن عباس والحسن رضي الله عنهم: هي العمل بما يزكِّي النفس ويطهِّرها، وهو طاعة الله ورسولِه ﷺ(١).

❍ **والناس يوم القيامة اثنان:** مجرمٌ أو متزكٍ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَٰتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٤-٧٥].

إذا عُلم هذا: تبين أهمية هذا الموضوع وشدة الحاجة إلى العناية به، فإن القلب بحاجة إلى أن يأخذ من الايمان وَالْقُرْآنِ مَا يُزَكِّيه وَيُؤَيِّدهُ كما يتغذى الْبدن بِمَا ينميه ويقويه، وإلا كان الهلاك!

ولا بد مع ذلك من منع ما يضره؛ فالتزكية وَإِن كَانَ أَصْلهَا النَّمَاء وَالْبركَة وَزِيَادَة الْخَيْر: فَإِنَّمَا تحصل بِإِزَالَة الشَّرّ؛ فالتزكية تجمع بين الأمرين: زيادة الخير وإزالة الشر.

فالْمعاصِي بِمَنْزِلَة الاخلاط الرَّديئَة فِي الْبدن والدغل فِي الزَّرْع؛ فَإِذا تخلّص البدن من الأخلاط الرَّديئَة: نما وصحَّ؛ فكذلك الْقلب؛ إذا جانب الذنوب أو تاب منها: كَانَ استفراغا من تخليطاته، فتخلصت قوة القلب وإرادته للخير،

(١) انظر: تفسير الطبري ١٠/ ٤٨٧، وزاد المسير ٢/ ١٦٠.

فاستراح من الجواذب الفاسدة.

فلا سبيل إلى زكاة القلب إذن إلا بعد طهارته! وتأمل في هذا قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ﴾ [النور:٣٠] فجعل الزكاة بعد غض البصر وحفظ الفرج.

قال بعض العلماء: الذكر للقلب بمنزلة الغذاء للجسد؛ فكما لا يجد الجسد لذة الطعام مع السَقَم؛ فكذلك القلب لا يجد حلاوة الذكر مع حب الدنيا.

وليعلم العبد أنه لا زكاة لقلبه وروحه -مهما اجتهد- إلا بتفضل الكريم سبحانه؛ فهو القائل: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ﴾ [النور:٢١]، فلا مُفلح إلا من زكاه ربه، فالله هو المزكي، ومن زكّاه فهو المتزكي، ؛ فليلجأ العبد إليه، وليصدق في الطلب؛ وليبشر بفضله، فسيفتح له من رحمته.

وقد كان من دعاء النبي ﷺ: «**اللهم آت نفسي تقواها، وزكِّها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها**»(١).

وليُعلم أيضا أن **أعظم ما يتغذى به القلب ويقوى: التوحيد والصلاة.**

❍ **أما التوحيد:** فهو الحبل الأوثق والسبب الأعظم لتزكية القلوب ونمائها؛ قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى:١٤] ، أي: تطهر عن الشرك، وقال لا إله إلا

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٢).

الله وآمن ووحد[١].

وقال تعالى آمرا نبيه موسى عليه السلام في دعوته فرعون إلى التوحيد: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات:١٨-١٩]؛ فلا تزكية ولا طهارة إلا بالتوحيد، والضد بالضد، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة:٢٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت:٦-٧]، قال أكثر المفسرين: الزكاة في هذه الآية: التوحيد[٢]، وفيها يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «**هم الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله**»[٣]؛ فإن التوحيد يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق سبحانه من القلب وإثبات إلهيته، وذلك طهارته، وهو أصل كل زكاة ونماء.

فإن النَّفس لَيْسَ لَهَا نجاة وَلَا سَعَادَة وَلَا كَمَال إِلَّا بِأَن يكون الله وَحده محبوبَها ومعبودَها، لَا أحب إِلَيْهَا مِنْهُ، وَلَا آثر عِنْدهَا من مرضاته والتقربِ إِلَيْهِ.

❍ **وأما الصلاة:** فهي أعظم أسباب زكاة القلب بعد التوحيد؛ فهي قوت القلوب، وسبب صلاحها وكمالها، هذا إذا كانت صلاةً ذات خشوعٍ، مُؤداةً على الوجه المرضي.

---

(١) وهو قول جماعة من السلف في الآية؛ كابن عباس وعكرمة وعطاء وغيرهم. انظر: تفسير الطبري ٢٤/ ٣١٩، وتفسير السمعاني ٦/ ٢١٠، وتفسير البغوي ٨/ ٤٠٢، وزاد المسير ٤/ ٤٣٢.

(٢) انظر: إغاثة اللهفان ١/ ٤٩. وانظر أيضا: مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/ ٢٩٩.

(٣) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٧٩.

وإذا كان الجسد لا يتغذى باليسير جدا من الأكل؛ فالقلب لا يقتات بصلاة تُنقر نقرا! بل لا بد من صلاة تامة تُقيت القلوب، وما أقل من يتنبه إلى هذا!

إن الصلاة التي تغذي القلب -حقا- هي صلاة حاضرِ القلب، المقبلِ على ربه في صلاته، الذي قد أشعر قلبَه عظمة من هو واقف بين يديه، فامتلأ من هيبته، وذلّت عنقه له، واستحيا منه أن يُقبل على غيره أو يلتفتَ عنه.

❍ **إنها الصلاة** التي اجتهد صاحبها في تكميل خشوعها وشروطها وأركانها وواجباتها وما استطاع من سننها.

❍ **إنها الصلاة** التي أضحت قرة عينه ونعيم روحه وجنة قلبه ومستراحه في الدنيا، فلا يزال كأنه في سجن وضيق حتى يدخل فيها فيستريحَ بها، لا منها.

❍ **والخلاصة** المستفادة من هذه القاعدة: أنه إذا عُلم أن القلب بحاجة إلى أن يُربّى بالغذاء الروحي الإيماني كما يحتاج البدن إلى أن يُربى بالغذاء الحسي المادي، وأن الحاجة إلى زكاة القلب أعظم من الحاجة إلى زكاة البدن: فالمتعين إذن أن تكون تزكية القلب نصب عين كل من يريد نجاة نفسه وسعادَتها؛ فكما أنه لا يغفل أو ينسى أن يتناول وجبةَ -بل وجبات- طعامِه التي تقوت بدنه يوميا؛ فعليه أن لا يغفل ولا ينسى أن يتناول ما يُقيت قلبه ويزكيه يوميا، بتحصيل الخير، وإزالة الشر والتوبة منه.

❍ **وليكن على ذُكرٍ**: أن السعادة في التزكية، والشقاوةَ في التدسية؛ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠].

القاعدة الثانية:

القلب إذا امتلأ بشيءٍ لم يبقَ فيه متسعٌ لغيره[١]

القلب ليس له إلا وجهة واحدة؛ فإذا مال إلى جهةٍ لم يَمِل إلى غيرها، قال تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ [الأحزاب:٤].

فبقدر ما يدخل القلب من همٍ وإرادةٍ وحُبٍ: يخرج منه همٌ وإرادةٌ وحُبٌ يقابله، فهو إناءٌ واحد والأشربة متعددة، فأيُ شراب ملأه لم يبق فيه موضع لغيره، وإنما يمتلئ الإناءُ بأعلى الأشربة إذا صادفه خالياً، فأما إذا صادفه ممتلئاً من غيره لم يساكنه حتى يُخرج ما فيه ثم يسكن موضعَه.

فما صاحِبُ التَطْوافِ يعمرُ منهلًا ورَبعًا، إذا لم يُخل ربعًا ومنهلا

وعليه؛ فليس للعبد قلبان يطيع الله ويتبعُ أمره ويتوكلُ عليه بأحدهما والآخر لغيره؛ بل ما ثَمّ إلا قلبٌ واحد؛ فإن لم يُفرِدْ بالتوكل والمحبة والتقوى ربَه؛ وإلا انصرف إلى غيره.

فإذا كان القلب مشغولا بالله عاقلا للحق متفكرا في العلم المقرِّب إليه: فقد وُضع في موضعه؛ لأنه لم يُخلق إلا لهذا، أما إذا لم يُصرف إلى معرفة الله ولم يعِ

---

(١) انظر: مدارج السالكين ١/ ١٧١، ٣/ ٣٤٩، وروضة المحبين ٢٨٨، وطريق الهجرتين ١٨، وشفاء العليل ١٠٧، وجامع المسائل لابن تيمية – المجموعة السابعة ١/ ١٦٢.

الحق فقد نسي ربه، فلم يوضع في موضعه؛ بل هو ضائع!

وهو مع ذلك ليس فارغا ولا خاليا؛ بل لا يزال في أودية الأفكار وأقطار الأماني، وهذا من العجب! فسبحان ربنا العزيز الحكيم.

وإنما تنكشف للإنسان هذه الحال عند رجوعه إلى الحق؛ إما في الدنيا عند الإنابة، أو عند المنقلب إلى الآخرة؛ فيرى سوء الحال التي كان عليها، وكيف كان قلبه ضالا عن الحق.

والخلاصة: أن ما سوى الحق باطل؛ فإذا لم يوضع القلب في الحق؛ لم يبقَ إلا الباطل.

فالقلب إذا كان مقبلا على الحق والعلم والذكر معرضا عن غير ذلك: كان على الحنيفية ملةِ إبراهيم عليه السلام؛ فإن الحَنَف: هو المَيلُ عن الشيء بالإقبال على آخر؛ فالدين الحنيف هو الإقبال على الله وحده والإعراض عما سواه، وصاحبه هو معمور القلب بالعبودية، طاهرُ القلب عن سَفساف الأخلاق، من صار عبدا محضا لربه، بروحه وقلبه، وعقله وجوارحه؛ فإن تكلم فبالله، وإن نطق فعن الله، وإن عمل فبأمر الله، فهو في كل حال وحين: لله، وبالله.

وينبغي التنبه ههنا إلى أمرين:

❍ **الأول:** أنه لمّا كان القلب محلا للمعرفة والقصد والمحبة والإنابة، وكانت هذه الأشياء إنما تدخل في القلب إذا اتسع لها؛ فإذا أراد الله هداية عبده: وسّع صدرَه وشرَحَه، فدخلت فيه وسكنته، وإذا أراد ضلاله: ضيّق صدره وأحرجه، فلم يجد محلا يدخل فيه، فيعدل عنه ولا يساكنه.

وكل إناء فارغٍ إذا دخل فيه الشيءُ ضاقَ به، وكلما أُفرغ فيه الشيء ضاق، إلا القلب اللّين، فكلما أُفرغ فيه الإيمانُ والعلمُ: اتسع وانفسح، وهذا من آيات قدرة ربنا تعالى.

فشرحُ القلب والصدر من أجَلِّ النِعَم، وتضييقُه من أعظم النقم!

إن القلب للعلم والإيمان كالإناء للماء، والوعاء للعسل، والوادي للسيل، كما قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد:١٧]، وكما قال النبي ﷺ: «**إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا، فكانت منها طائفةٌ طيبة، قبِلت الماء؛ فأنبتت الكلأ والعشب الكثير**»[(١)] الحديث.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «بلغنا عن بعض السلف قال: «**القلوب آنية الله في أرضه، فأحبُّها إلى الله تعالى: أرقُّها وأصفاها**». وهذا مَثَلٌ حسنٌ؛ فإن القلب إذا كان رقيقا لينا كان قبوله للعلم سهلا يسيرا، ورسخ العلم فيه وثبت وأثّر، وإن كان قاسيا غليظا كان قبوله للعلم صعبا عسيرا، ولا بد مع ذلك أن يكون زكيا صافيا سليما حتى يزكوَ فيه العلمُ ويثمرَ ثمرا طيبا، وإلا فلو قبِل العلمَ وكان فيه كدرٌ وخبث: أفسد ذلك العلم، وكان كالدغل في الزرع؛ إن لم يمنع الحَب من أن يَنبت؛ منعه من أن يزكو ويطيب، وهذا بيّن لأولي الأبصار»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري ٧٩، ومسلم ٢٢٨٢، واللفظ له.

(٢) الفتاوى ٩/ ٣١٥.

الثاني: أنه متى وَجَّه الإنسان همّه إلى شيء: كان له منه حجابٌ عن غيره.

فالقلب إذا انصرف إلى شيء انصرف عما سواه، بحسب قوة انجذابه إلى هذا وإعراضه عن هذا.

فإذا شُغل بشيء من فتن الدنيا وشهوات النفس فاستولى على قلبه؛ فهو حينها قد ضيّع حقه، وفاته النظر فيما ينفعه؛ فهو في هذه الحال كالعين الناظرةِ إلى وجه الأرض؛ لا يمكنها أن ترى ما أمامها، أو العينِ التي فيها قذى لا يمكنها رؤية الأشياء.

فمن أَرَادَ صفاء قلبه وصلاحه فليؤثر اللهَ على شَهْوَته؛ فإن الْقُلُوب الْمُتَعَلّقَة بالشهوات والشبهات محجوبةٌ عَن الله بِقدر تعلقهَا بهَا.

وكمال الحب في أن يحب العبد ربه عز وجل بكل قلبه، وما دام يلتفت إلى غيره: فزاويةٌ من قلبه مشغولة بغيره!

فبقدر ما يُشغَلُ بغير الله: ينقص منه حُبُ الله.

وإذا كان النبي ﷺ قد قال: «**لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة**»[(١)]، أي أن الملائكة الكرام يمنعها الكلب والصورة عن دخول البيت؛ فكيف تلِجُ معرفة الله عز وجل ومحبتُه وحلاوةُ ذكره والأنسُ بقربه في قلب ممتلئ بكلاب الشهوات وصورِها؟!

---

(١) أخرجه البخاري ٣٣٢٢، ومسلم ٢١٠٦.

وإذا كانت طهارة الثوب والبدن شرطا في صحة الصلاة، فإذا أخل بها كانت فاسدة؛ فكيف إذا كان القلب نجسا لم يطهره صاحبه؛ كيف يتم انتفاعه بصلاته؟! وهل طهارة الظاهر إلا تكميلٌ لطهارة الباطن؟!

وإذا كان استقبال القبلة في الصلاة شرطا لصحتها؛ فكيف الظن بصلاة من لم يتوجه بقلبه إلى رب القبلة والبدن؛ بل بدنه إلى البيت، وقلبه إلى غير رب البيت؟![1]

وفي حديث الحارث الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**فإذا صليتم فلا تلتفتوا؛ فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت**»[2].

(١) انظر: مدارج السالكين ٢/ ٣٩١.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٨٦٣.

القاعدة الثالثة:

القلب لا يتسع للعِوض والمعوَّض عنه[١]

إن الشرائع غذاء القلوب وقوتُها، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «**إن هذا القرآن مأدبة الله، فمن دخل فيه فهو آمن**»[٢].

ومن شأن الجسد إذا كان جائعا فأخذ من طعامٍ حاجته: استغنى عن طعام آخر، حتى لا يأكل منه -إن أكل- إلا بكراهة وتجشم، وربما ضرَّه أكله؛ وكذا العبد إذا أخذ من غير الأعمال المشروعة بعضَ حاجته: قلّت رغبته في المشروع وانتفاعُه به بقدر ما اعتاض من غيره، بخلاف من صرف نهمته وهمته إلى المشروع؛ فإنه تعظم محبته له ومنفعته به، ويتم دينه ويكمل إسلامه.

والقاعدة هنا: أن **من لم يفعل المأمور: فعل بعض المحظور، ومن فعل المحظور: لم يفعل جميع المأمور**.

فلا يمكن الإنسانَ أن يفعل جميع ما أُمر به مع فعله لبعض ما حُظِر، ولا يمكنه ترك كل ما حُظِر مع تركه لبعض ما أُمر؛ فإن تركَ ما حُظر من جملة ما أُمر به؛ فكل ما شغله عن الواجب فهو محرم، وكل ما لا يمكن فعل الواجب إلا به فواجبٌ فعله.

وقد قال تعالى: ﴿فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ

---

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٥٤٤، ومجموع الفتاوى ١٧٣-١٧٤.

(٢) أخرجه الدارمي ٤/ ٢٠٩٣

وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ [المائدة:١٤] ، أي: فلما تركوا حظا مما ذُكِّروا به اعتاضوا بغيره؛ فوقعت بينهم العداوة والبغضاء.

وقال سبحانه: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٣] ، فأمر باتباع ما أنزل ونهى عما يضاد ذلك -وهو اتباع أولياء من دونه-؛ فمن لم يتبع أحدهما اتبع الآخر.

ولذا تجد مَن أكثر من سماع الغناء -حتى استولى على قلبه-؛ تنقص رغبته في سماع القرآن، حتى ربما كرهه!

حُب القرآن وحُب ألحان الغنا في قلب عبدٍ ليس يجتمعانِ

ومَن أكثر من السفر إلى زيارة القبور والمشاهد الشركية؛ لا يبقى لحج البيت الحرام في قلبه من المحبة والتعظيم ما يكون في قلب من وسعته السنة.

ومن أدمن أخذ الحكمة والآداب من كلام حكماء الشرق والغرب؛ لا يبقى لحكمة الإسلام وآدابه في قلبه ذاك الموقع.

ومن أدمن قراءة «**الروايات**» والقصص السخيفة؛ لا يكاد يبقى لقصص الأنبياء وسيرهم في قلبه ذاك الاهتمام.

وهكذا المشتغل بالبدع في عباداته: تضعف عنايته بتطبيق السنة فيها.

والذين يُعرضون عن الدعاء المسنون والتوسل المشروع؛ لا يكادون يستعملون شيئًا منها في دعائهم، بل الجاري على ألسنتهم غالبا: أدعيةٌ اخترعوها، وتوسلاتٌ ابتدعوها ما أنزل الله بها من سلطان.

ونظير هذا كثير.

وصدق التابعي الجليل حسانُ بنُ عطية المحاربيُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال: «**ما ابتدع قومٌ بدعةً في دينهم إلا نزع الله من سُنتهم مثلها، ثم لا يُعيدها إليهم إلى يوم القيامة**»(١).

وهذا أمر يعرفه من نظر في حال الناس، ولهذا عظّمت الشريعة النكير على من أحدث البدع، وكرهتها؛ لأن البدع لو خرج العبد منها كَفافا لا عليه ولا له لكان الأمر هينا؛ بل لا بد أن توجب له أنواعا من الفساد؛ ومنه: نقص منفعة الشريعة في حقه؛ إذ القلب لا يتسع للعوض والمعوض منه! ولذا قال النبي ﷺ في العيدين الجاهليين: «**كان لكم يومان تلعبون فيهما، وقد أبدلكم الله بهما خيرا منهما: يوم الفطر، ويوم الأضحى**»(٢).

فاغتذاء قلب العبد من الأعمال المبتدعة مانع عن الاغتذاء -أو من كمال الاغتذاء- بالأعمال الصالحة النافعة الشرعية؛ فيفسد عليه حاله من حيث لا يشعر، كما يفسد جسد المغتذي بالأغذية الخبيثة من حيث لا يشعر.

وهذا ما يُبين بعضَ ضرر البدع!

❍ **والخلاصة**: أن القلوب إذا تعوضت عن المشروع بغير المشروع، وعن الحق بالباطل: فَتَرَت عن الرغبة في الحق والمشروع، وزال ما كان له عندها من المحبة والتعظيم -أو كثير منه-، فنقص بسبب ذلك تأثيرها في القلوب؛

---

(١) أخرجه الدارمي ١/ ٢٣١

(٢) أخرجه النسائي ٣/ ١٧٩

فخسرت النفوس بهذا خسرانا مبينا!

وأعظم من هذا: أن من أعرض عن عبودية الله وطاعته ومحبته: بُلي بعبوديةٍ لمخلوق وبمحبته وخدمته، قَالَ تَعَالَى ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف:٣٦].

ومن عظُم خوفه من غير الله: قلّ خوفه من ربه.

ومن كثُرت المحبوبات -دون الله- في قلبه: نقصت محبة الله في قلبه.

فعلى العاقل أن يجاهد نفسه، فيفرغ قلبه من الاشتغال بالباطل والفكر فيه، وأن يسعى في أن يمحوَهُ من نفسه كلما خطر له؛ فلا يَلْتفت إليه، فضلا عن أن يملأ قلبه به، فهذا من أنفع الأدوية في صلاح القلوب، وأقوى الأسباب المعينة على اندفاع الشر عنها.

كما عليه أن يتسلح بالهمة العالية؛ فإن الذي يُسيّر العبد -بإذن ربه- إنما هو همته، والهمة إذا علت وارتفعت لم تلحقها القواطع والآفات؛ كالطائر إذا علا وارتفع في الجو فات الرماة ولم تلحقه البنادق والسهام، وإنما تدرك هذه الأشياءُ الطائرَ إذا لم يكن عاليـًا، فكذلك الهمة العالية قد فاتت الجوارح والكواسر، وإنما تلحق الآفاتُ الهمةَ النازلة!

فمن عَلَت همّته: سلِم -بتوفيق الله- من الآفات.

والمقصود أن اجتماع القلب على الله وطمأْنينته به وسكونه إليه بلا منازع ولا جاذب ولا معارض: هو صحته وحياته ونعيمه.

وهذا باب عظيم النفع، لا يُلقّاه إلا أصحابُ النفوس الشريفة والهمم العَلِيَّة.

وهل شيء أعظم من قلب آثر ربه ومرضاته على هواه وشهوته ودواعي طبعه! فهو هارب إلى ربه من بين تلك الجيوش، ومقبل عليه في تلك الزعازع والأهوية.

وليُعلم أن ثواب هذه الحال معجلٌ في الدنيا قبل الآخرة؛ فإنه إذا أصبح القلب وَأمسى وليس همه إلا الله وحده تحمل اللهُ سبحانه حَوَائِجه كلهَا، وَحمل عنه كل ما أهمه، وَفرّغ قلبه لمحبته، وَلسَانه لذكره، وجوارحه لطاعته.

أما إذا أصبح وأمسى والدنيا همه: حمّله الله همومها وغمومها وأنكادها، ووكله إلى نفسه، فشغل قلبه عن محبته بمحبة الخلق، ولسانه عن ذكره بذكرهم، وجوارحه عن طاعته بخدمتهم وأشغاله؛ فهو يكدح كدح الوَحْش في خدمة غيره، ويبلي جسده في نفع غيره!

قال ﷺ: «**من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدر له**»(١).

ويكفي في الإقبال على الله تعالى وإشغال القلب بحبه وذكره ثوابًا عاجلا: أن الله سبحانه وتعالى يُقبل بقلوب عباده إلى من أقبل عليه، كما أنه يعرض بقلوبهم عمن أعرض عنه؛ فإن قلوب العباد بيد الله لا بأيديهم.

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٤٦٥.

قال بعض السلف: «ما أقبل عبدٌ على الله بقلبه إلا أقبل الله عز وجل بقلوب المؤمنين إليه، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم»[١].

(١) روضة المحبين ٤١٧.

القاعدة الرابعة:

القلب هو الأصل، والجوارح تبع[١]

القلب ملك الجوارح وسلطانها، والجوارح جنوده ورعيته المطيعة له، المنقادة لأمره، فإذا صلح الملك صلحت رعاياه، وإذا فسد الملك فسدت.

قال أبو هريرة رضي الله عنه: «**القلب مِلك وله جنود، فإذا صلح المِلك صلحت جنوده، وإذا فسد المِلك فسدت جنوده**»[٢].

وإذا كان الجسد تابعا للقلب فلا يستقر شيء في القلب إلا ظهر مقتضاه على البدن، ولو بوجه من الوجوه.

وعليه فالقلب هو الأصل، فإذا كان فيه معرفةٌ وإرادةٌ سرى ذلك إلى البدن بالضرورة، ولا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب، ولذا قال النبي ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة؛ إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»[٣].

---

(١) انظر: بدائع الفوائد ٣/ ١١٤٧، والداء والدواء ٢١٥، ومختصر الصواعق ٥٩٦، والإيمان الأوسط ١٣٠، ٤٢٨، ومجموع الفتاوى ٧/ ١٨٧، ١٤/ ١١٤-١٢١.

(٢) أخرجه معمر في جامعه ١١/ ٢٢١ (ضمن مصنف عبد الرزاق)، ومن طريقه: أبو نعيم في الطب النبوي ١/ ٢٢٤، والبيهقي في شعب الإيمان ١/ ٢٥٧.

(٣) أخرجه البخاري ٥٢، ومسلم ١٥٩٩.

فإذا كان القلب صالحا -بما فيه من الإيمان علما وعملا- لزم ضرورةً صلاح الجسد؛ أي أن يتحرك بمقتضى ذلك من الأقوال الحسنة والأعمال الصالحة، وما لم يظهر أثرٌ صالح: فهو دليل على فساد الباطن! قال ﷺ: «**التقوى ههنا**» وأشار إلى صدره ثلاث مرات[(١)].

ومن تأمل الشريعة في مصادرها ومواردها علم ارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب، وأنها لا تنفع بدونها.

كما علم أن أعمال القلوب أفرضُ على العبد من أعمال الجوارح، وهل يتميز المؤمن عن المنافق إلا بما في قلب كل واحد منهما؟!

وهل يمكن أحدا الدخولُ في الإسلام إلا بعمل قلبه قبل جوارحه؟!

وهل تنفع الأعمال الصالحة ما لم تكن مؤسسة على العقيدة الصحيحة والتوحيد الخالص؟!

إذا تبين ما سبق فينبغي ملاحظة أمور:

- ***أولا***: أن معرفة أحكام القلوب أهم من معرفة أحكام الجوارح؛ إذ هي أصلها، وأحكام الجوارح متفرعة عليها، وما أكثر الغفلة عن هذا!
- ***ثانيا***: أن الثوابَ والعقابَ والمدحَ والذمَّ وتوابعَها هي للقلب أصلًا وللجوارح تبعًا.

فهنيئا لمن تعاهد قلبه!

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٦٤.

❍ **ثالثا**: أن المقصود بالأعمال أوَّلًا صلاحُ القلب واستقامتُه وعبوديتُه لربِّه ومليكه، وجُعِلَت أعمالُ الجوارح تابعةً لهذا المقصود مرادةً له، كما قال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ﴾ [الحج:٣٧].

❍ **رابعا**: أن عبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح وأكثر وأدوم، فهي واجبة في كل وقت، بخلاف أعمال الجوارح.

❍ **خامسا**: كل ما أوجبه الله على العباد لا بد أن يجب على القلب؛ فإنه الأصل، وإن وجب على غيره تبعا؛ فالعبد إنما يعلم بالأمر والنهي قلبُه، وإنما يقصد بالطاعة والامتثال قلبُه، والعلم بالمأمور وقصدُ الامتثال يكون قبل وجود الفعل المأمور به؛ فالقلب هو الأصل فيه.

ومثله الأقوالُ المأمورُ بها؛ فالقلبُ أخص بها؛ فلا بد أن يعلم القلب ما يقول ويقصده، ولهذا كانت الأقوال في الشرع لا تعتبر إلا من عاقل يعلم ما يقوله ويقصده، فأما المجنون والطفل الذي لا يميز فأقواله لغو في الشرع.

والشرع لم يرتب المؤاخذة إلا على ما يكسِبه القلب من الأقوال والأفعال الظاهرة[(١)]، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ﴾ [البقرة:٢٢٥].

❍ **سادسا**: ينبغي أن يُعلم أنه كما أن للقلب على الجوارح سلطة؛ فللجوارح على القلب تأثير!

فما يظهر على البدن من الأقوال والأعمال هو موجَب ما في القلب ولازمه

---

(١) وأما ثبوت بعض الأحكام -كضمان النفوس والأموال إذا أتلفها مجنون أو نائم أو مخطئ أو ناسٍ-: فهذا من باب العدل في حقوق العباد، وليس من باب العقوبة.

ودليلُه ومعلوله، كما أن ما يقوم بالبدن من الأقوال والأعمال له -أيضا- تأثير في القلب.

فكل منهما يؤثر في الآخر، لكن القلب هو الأصل، والبدن فرع له، والفرع يستمد من أصله، والأصل يثبت ويقوى بفرعه، كما في الشجرة التي يُضرب بها المثل لكلمة الإيمان، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم:٢٥] وهي كلمة التوحيد.

فالشجرة كلما قوي أصلها قوي فرعها، وفروعها -أيضا- إذا اغتذت بالمطر والريح أثر ذلك في أصلها.

❍ والخلاصة:

أن الإيمان القائم بالقلوب أصل كل خير، وهو خير ما أوتيه العبد في الدنيا والآخرة، وبه يحصل له سعادةُ الدنيا والآخرة، والنجاةُ من شقاوة الدنيا والآخرة، ومتى رسخ الإيمان في القلب انبعثت الجوارحُ بالأعمال الصالحة، واللسانُ بالكلام الطيب.

فإذا ذاق العبد حلاوة الإيمان ووجد طعمه وحلاوته: ظهر ثمرة ذلك على لسانه وجوارحه ولا بد، «**فاستحلى اللسانُ ذكر الله وما والاه، وأسرعت الجوارح إلى طاعة الله، فحينئذ يدخل حب الإيمان في القلب كما يدخل حب الماء البارد الشديدِ بردُه في اليوم الشديدِ حره للظمآن الشديدِ عطشه! ويصير الخروج من الإيمان أكره إلى القلوب من الإلقاء في النار، وأمرّ عليها من**

الصَبر!»[١].

أخرج ابن المبارك في كتابه الزهد[٢] عن مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمٍ قَالَ: بَلَغَنِي عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ دَخَلَ الْمَدِينَةَ فَقَالَ: «**مَا لِي لَا أَرَى عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِهِ لَوْ أَنَّ دُبَّ الْغَابَةِ طَعِمَ الْإِيمَانَ لَرُئِيَ عَلَيْهِ حَلَاوَةُ الْإِيمَانِ**».

(١) لطائف المعارف ٢٢٦.

(٢) ١/ ٥٤١.

القاعدة الخامسة:

الغِنى غِنى القلب[١]

إن الغنى على الحقيقة ليس إلا لله الغني بذاته عن كل ما سواه، وكل ما سواه فموسوم بسمة الفقر كما هو موسوم بسمة الخلق والصُنع، وغناه أمرٌ نسبيٌ عارضٌ له، فإنه إنما استغنى بأمر خارج عن ذاته؛ فهو غني به فقير إليه، ولا يوصف بالغنى على الإطلاق إلا مَن غِناهُ من لوازم ذاته؛ فهو الغني بذاته عما سواه، وهو الأحد الصمد، الغني الحميد جل جلاله.

وما أحسن ما قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

والفقرُ لي وصفُ ذاتٍ لازمٌ أبدا كما الغنى أبدًا وصفٌ له ذاتي[٢]

والغنيُ من الخلق إنما يصير غنيًا بحصول ما يسد فاقته ويدفع حاجته، وفي القلب فاقة عظيمة وضرورة تامة وحاجة شديدة لا يسدها إلا فوزه بمعرفة الغني الحميد وعبادته؛ فهذا إن حصل للعبد حصل له كل شيء، وإن فاته فاته كل شيء.

---

(١) انظر: طريق الهجرتين ٣٣-٣٤، والوابل الصيب ٧-٨، ومدارج السالكين ٢/ ٤١١، ٣/ ٢٧٠.

(٢) بيت من قصيدة لشيخ الإسلام ابن تيمية، نقلها عنه تلميذه ابن القيم في مدارج السالكين ١/ ٥٢٠. واستشهد ابن القيم بهذا البيت -أيضا- في مواضع من كتبه، انظر: مدارج السالكين ١/ ٤٣٩، ٢/ ٤١١، وطريق الهجرتين ٨.

وإذا استيقن العبد بهذا تبين له أن الفقر إلى الله عز وجل هو عين الغنى؛ فكمالُ الغنى به هو كمال عبوديته، وحقيقة العبودية: كمال الافتقار إليه من كل وجه -من حيث كونه ربًا، ومن حيث كونه معبودًا-، وهذا الافتقار هو عين الغنى به.

فأفقر الناس إلى الله: أغناهم به، وأذلهم له: أعزهم، وأضعفهم بين يديه: أقواهم.

فكما أنه سبحانه الغني بذاته على الحقيقة ولا غني سواه؛ فالغني به هو الغني في الحقيقة، ولا غنى بغيره البتة.

فمن لم يستغنِ به عما سواه: تقطعت نفسه حسرات، ومن استغنى به: زالت عنه كل حسرة، وحضره كل سرور وفرح.

وأما الغنى بغيره: فعين الفقر! فإنه غِنىً بمعدوم فقير، والفقير كيف يستغني بفقير مثله؟!

فمن لم يستغنِ قلبه بالله ففقره بين عينيه، ولا يزال خائفا من الفقر، ولن يستغنى قلبه بشيء، ولن يشبع من الدنيا، ولن يغنيه ما كثر له منها، وإنما يضر نفسه.

قال ابن رجب: «**ولهذا قال الإمام أحمد وابن عيينة وابن وهب وجماعة من الأئمة: إن الفقر الذي استعاذ منه النبي ﷺ هو فقر النفس**»[(١)].

---

(١) مجموع رسائل ابن رجب ١/ ٣٠٩.

يـــــا غنيًّـــــا بالـــــدنانير محـــــبُ الله أغنـــــى![١]

وقد قال النبي ﷺ قال: «**إِنَّمَا الْغِنَى غِنَى الْقَلْبِ، وَالْفَقْرُ فَقْرُ الْقَلْبِ**»[٢].

وقال ﷺ: «**ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس**»[٣].

❍ **إن حقيقة غنى القلب:** تعلقه بالله وحده، وحقيقة فقره المذموم: تعلقه بغيره.

❍ **وإذا أغنى الله القلب:** صح سيره إليه، وقطع تعلقه بغيره، ولم يقصد سواه، واكتفى به واستغنى عما سواه، واستوحش ممن يقطعه عنه.

ولا سبيل لغنى القلب إلا بتحقيقه العبودية المحضة التي هي أعظم خُلعة تخلع عليه، فإذا استغنى القلب بهذا الغنى استغنت النفس غنى يناسبها، وذهب عنها كسلُها وإخلادها إلى الأرض، وسُقيت بماءِ الحياة الذي أنزله الله عز وجل على قلوب أنبيائه (الوحي)؛ فأنبتت من كل زوج كريم، فحينئذ انقادت بزمام المحبة والخوف والرجاء إلى مولاها الحق مؤديةً لحقوقه، قائمةً بأوامره، راضيةً عنه، مرضيةً له: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر:٢٨].

وقد كان النبي ﷺ أَغْنَى عِبَادِ اللهِ قَلْبًا، قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى:٨]. والصحيح -والله أعلم- أن الغنى في الآية يعم نوعي الغنى: فأغنى

---

(١) المصدر السابق ١/ ٣٣٨.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى ١١٧٨٥.

(٣) أخرجه البخاري ٦٤٤٦، ومسلم ١٠٥١.

قلبه به، وأغناه من المال[١].

وكان ﷺ يسأل ربه هذا الغنى؛ فكان يقول: «**اللهم إني أسألك الهدى والتقى، والعفاف والغنى**»[٢].

❍ **والمراد بالغنى هنا:** غنى النفس، والاستغناء عن الناس وعما في أيديهم[٣].

وبه يُعلم أن غنى اليد شيء، وغنى القلب شيء آخر، وأن الشأن -كل الشأن- في غنى القلب.

وأما غنى اليد -أي الغنى بالمال وحطام الدنيا- فهذا لذاته لا يُذم ولا يُمدح، والمعول على ما يقارنه في القلب؛ فإن غنى اليد قد يقارنه غنى القلب فيكون ممدوحا؛ فـ«**نِعِمَّا بالمالِ الصَّالحِ للرَّجُلِ الصَّالحِ**»[٤]، وقد يكون مع فقر القلب؛ فيكون وبالا على صاحبه!

والمقصود أنه إذا منَّ الله على عبده بغنى قلبه فأيَ فقرٍ يخشى وقد فاز بهذا الحظ الجليل، وأيُ غنى فاته حتى يلتفت إليه؟!

---

(١) انظر: مدارج السالكين ٢/ ٤٢٠.

(٢) أخرجه مسلم ٢٧٢١.

(٣) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ١٧/ ٤١، والمفهم للقرطبي ٧/ ٤٩.

(٤) حديث ثابت عن النبي ﷺ، أخرجه أحمد في مسنده (١٧٨٠٢) وغيره، وفي بعض مصادر التخريج: «**نِعمَ المال الصالح** ...». وفي هذا المعنى عدة أحاديث، ومنها ما أخرجه أحمد (٢٣١٥٨) وابن ماجه (٢١٤١) عنه ﷺ أنه قال: «لا بأس بالغنى لمن اتقى».

ختاما..

ليُعلم أن النفس إذا ارتقت إلى غنى القلب استغنت به عن التطاول إلى الشهوات التي توجب اقتحام الحدود المسخوطة، والتقاعد عن الأمور المطلوبة المرغوبة؛ فإن فقرها إلى الشهوات هو الموجب لها التقاعد عن المرغوب المطلوب، وأيضا فتقاعدها عن المطلوب موجب لفقرها إلى الشهوات، والله المستعان.

القاعدة السادسة:

إذا استغنى القلبُ بالخالق: استغنى عن المخلوق[١]

إن القلب لا يستغني إلا بالله تعالى؛ فقد خُلِق الإنسان محتاجًا إلى جَلْبِ ما ينفعُه ودَفْع ما يَضُرُّه، ونفسُه مريدةٌ دائمًا، ولابُدَّ لها من مرادٍ يكوَنُ غايةَ مطلوبِهَا، فتسكنُ إليه وتطمئنُّ به، وكل مألوه سواه سبحانه يحصل به الفساد: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء:٢٢] ، ولا يحصل صلاح القلوب إلا بعبادة الله وحده والاستعانة به؛ فهو مفتقر إليه إلها، ومفتقر إليه ربا، فلا حول ولا قوة إلا بالله، ولا ملجأ منه إلا إليه.

والعبد إن لم يكن مخلصا له -تعالى- الدينَ: عبَدَ غيرَه، وأشرك به عبادَةً واستعانَةً، وما ذاك إلا لجهله بسعادته وظلمِه نفسه -وهو ظلوم جهول-، وإلا فسعادتُه في أن لا يعبد إلا الله، ولا يستعينَ إلا به، فبالعبادة له يستغني عن معبود آخر، وباستعانته به يستغني عن مُعينٍ غيرِه.

ولذا فالمشرك لا يحصل له ما يُقرُ عينَه ويغني قلبَه؛ فإن الله سبحانه خلقَ

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى ١/ ٥٥، ١٠/ ١٩٨، وجامع المسائل لابن تيمية – المجموعة الثالثة ٥٤، والمجموعة الخامسة ٢٥٢. **وهذه القاعدة تكميلٌ وتتميمٌ للقاعدة السابقة.**

عِبادَهُ حنفاء على الفطرة؛ قال ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة**»[(١)].

فالقلب مخلوقٌ مفطورٌ على فطرة الإسلام، وهو الاستسلام لله دون ما سواه، فهو بفطرته لا يريد أن يعبد إلا الله، فلا يطمئنُ قلبه ولا تحصلُ لذته وسروره إلا بأن يكون الله معبودَه دون ما سواه.

وكل معبود دونه يوجبُ الفساد، ولا يَحْصُل به صلاح القلب وكماله وسعادته، وإذا لم يحصل هذا: سيبقى في عطش وهلع؛ فيطلب ما يسكن به ويلتذ، فلا يجد أمامه إلا معاقرة الموبقات!

إذن لن يستغني القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه، ولا يستعين إلا به، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يفرح إلا بما يحبه ويرضاه، ولا يكره إلا ما يبغضه ويكرهه، ولا يوالي إلا من والاه، ولا يعادي إلا من عاداه، ولا يحب إلا له، ولا يبغض إلا له، ولا يعطي إلا له، ولا يمنع إلا له.

❍ **فبقدر إخلاصه لله ومحبته**: تكمل عبوديته له، ويتم استغناؤه عن المخلوقات.

قال بعضهم: «**إذا انقطع العبد إلى الله بالكلية فأول ما يفيده: الاستغناء به عمن سواه**»[(٢)].

وكلما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته ورجائه لقضاء حاجته ودفع

---

(١) أخرجه البخاري ١٣٨٥، ومسلم ٢٦٥٨.

(٢) نقله ابن رجب كما في مجموع رسائله ٣/ ٣٤٠.

ضرورته؛ قويت عبوديته له، وحريته مما سواه؛ فكما أن طمعه في المخلوق يوجب عبوديته له؛ فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه!

كما قيل: استَغْنِ عمن شئت تكن نظيره، وأفضِل على من شئت تكن أميره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره[(١)].

ولن يرتقي العبد إلى هذه الرتبة إلا بأن يشهد فقرًا تامًا إلى ربه، ويوقنَ بأن كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة مضطرة إليه من جهة كونه ربًا، ومن جهة كونه إلهًا معبودًا؛ فلا غنى له عنه، كما لا وجود له بغيره.

وإنما يصح له هذا بمعرفتين لا بد له منهما: معرفةِ حقيقة الربوبية والإلهية، ومعرفةِ حقيقة النفس والعبودية؛ فإن أعطى هاتين المعرفتين حقهما: اتصف بهذا الفقر؛ فما أغناه حينئذ من فقير، وما أعزه من ذليل، وما أقواه من ضعيف، وما آنسه من وحيد! فهو الغني بلا مال، القوي بلا سلطان، العزيز بلا عشيرة، المكفي بلا عتاد، قد قرّت عينه بالله؛ فقرّت به كل عين، واستغنى بالله؛ فافتقر إليه الأغنياء!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فإن المخلوقين إذا اشتكى إليهم الإنسان فضررهم أقرب من نفعهم! والخالق -جل جلاله وتقدست أسماؤه ولا إله

---

(١) ذكره ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى ١٠/ ١٨٥، وبنحوه في المجالسة وجواهر العلم ٦/ ٢٨٣ عن بعض الحكماء، وينسبه بعضهم لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كما في التمثيل والمحاضرة للثعالبي ٣٠، وربيع الأبرار للزمخشري ٣/ ١٨٦، والتذكرة الحمدونية ١/ ٢٤٤، ونهاية الأرب للنويري ٨/ ١٨٢، وخزانة الأدب للحموي ٢/ ٢٧١، وغيرهم.

غيره- إذا اشتكى إليه المخلوق وأنزل حاجته به واستغفره من ذنوبه: أيّده وقواه، وهداه وسدّ فاقته، وأغناه وقرّبه وأقناه، وحَبَّهُ[١] واصطفاه، والمخلوق إذا أنزل العبد به حاجته: استرذله وازدراه، ثم أعرض عنه!)[٢].

❍ **ومما يعين على تحقيق الاستغناء بالله:** رياضةُ النفس وأخذُها بالحزم؛ بأن تستغني عن الناس ما أمكن، وتحفظ ماء الوجه من أن يراق لهم، فهذا أدعى لأن يخرج أي تعلق والتفات إلى الخلق من القلب، وأنْ تُعلّقَ الحاجات كلُها بالحي الذي لا يموت، وهذا ما كان النبي ﷺ يربي أصحابه عليه؛ فقد علّم ابن عباس رضي الله عنهما فقال: «**إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله**»[٣].

وفي حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بايع جمعًا من أصحابه على أن لا يسألوا الناس شيئا، قال: «**فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم؛ فما يسأل أحدا يناوله إياه**»[٤].

قال أبو العباس القرطبي: «وأخذه ﷺ على أصحابه في البيعة: «**ألا يسألوا أحدًا شيئًا**»: حَملٌ منه على مكارم الأخلاق، والترفع عن تحمّل مِنَن الخلق، وتعليم الصبر على مضض الحاجات، والاستغناء عن الناس، وعزّة

---

(١) الفعل "حَبَّ" ثلاثي مُضاعَف، من باب ضرب، و"حبَّ" و"أحب" بمعنى واحد. انظر: لسان العرب ١/ ٢٨٩. قال الجوهري في الصحاح ١/ ١٠٥: "يقال: أحبّه فهو مُحَبٌّ، وحَبَّه يَحِبُّه -بالكسر- فهو محبوب".

(٢) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٤٠.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٥١٦، وأحمد ٢٦٦٩.

(٤) أخرجه مسلم ١٠٤٣.

النفوس»[١].

وعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من يضمن لي واحدة وأضمن له الجنة؟**» قال: قلت: أنا يا رسول الله. قال: «**لا تسأل الناس شيئا**»، فكان سوط ثوبان يسقط وهو على بعيره فيُنيخ حتى يأخذَه، وما يقول لأحد ناولنيه[٢].

❍ **والخلاصة:** أن طمع العبد في ربه ورجاءه له يوجب عبوديته له.

وإعراضه عن الطلب من الله والرجاء له يوجب انصراف قلبه عن العبودية له.

وكل مَنْ عَلَّقَ قَلْبَهُ بمخلوق في قضاء حوائجه: خَضَعَ قلبهُ لهُ؛ وصَار فيه مِن العبوديَّةِ لهُ بحسب حاله.

وبقدر تعلقه بالمخلوق يستكبر عن التذلل للخالق، فلا يكون من أهل السؤال والدعاء والطلب والخضوع له؛ فإن العبودية للمخلوق زاحمت العبودية للخالق فأضعفتها، وربما ألغتها!

فقبحًا لمن يسألُ حاجته العبيد، ويُعرضُ عن طلب من بيده كل ما يريد!

فإنه قد وضع المسألة في غير موضعها، وأنزلها بغير أهلها، وظلم توحيده وإخلاصه وفقره إلى الله، واستغنى بسؤال الناس عن سؤال رب الناس.

---

(١) المفهم ٣/ ٨٦.

(٢) أخرجه أحمد ٢٢٤٠٥، وابن ماجه ١٨٣٧، والنسائي -مختصرا- ٢٥٩٠.

وذلك كله يهضم من حق التوحيد، ويطفئ نوره، ويضعف قوته[١]، والله المستعان.

(١) انظر: مدارج السالكين ٢/ ٢٢٢.

القاعدة السابعة:

القلبُ السليمُ في جنَّة معجَّلة(١)

إن القلوب لا تدرك السعادةَ إلا بسلامتها، وأي لذة ونعيم في الدنيا أطيب من بر القلب وسلامة الصدر الذي تنوّر بمعرفة ربه تبارك وتعالى ومحبته والعمل بطاعته؟ وهل العيش في الحقيقة إلا عيش القلب السليم؟!

وقد أثنى الله سبحانه على خليله إبراهيم عليه السلام بسلامة قلبه، فقال: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ﴾ **[الصافات:٨٣-٨٤]**.

وَقَالَ حَاكِيًا عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ **[الشعراء:٨٨-٨٩]**.

فهذا القلب السليم في جنةٍ معجلةٍ في الدنيا، وفي جنةٍ في البرزخ، وفي جنةٍ يوم المعاد.

وهو الذي ضُمِنت له النجاة من العذاب، والفوز بالكرامة.

والسليم هو السالم، وجاء على هذا المثال لأنه للصفات؛ كالطويل والقصير

---

(١) انظر: الداء والدواء ١٢١-١٢٢، وإغاثة اللهفان ١/ ١٠، ومفتاح دار السعادة ١/ ١١٢-١١٤، وطريق الهجرتين ٣٧، ومدارج السالكين ٢/ ٦٨، ١٤٧، وبدائع الفوائد ٢/ ٦٠٠، وجامع العلوم والحكم ١/ ٢١٠-٢١١، وموعظة المؤمنين للقاسمي ٢٥٢.

والظريف؛ فالسليم: القلب الذي قد صارت السلامة صفة ثابتة له، كالعليم والقدير، وأيضا فإنه ضد المريض، والسقيم، والعليل.

وقد اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم، والأمر الجامع لذلك:

أنه القلب الذي أسلم وسلِم وسلَّم، وسالم واستسلم.

أسلم لله، وسلِم مما يقطع عنه، وسلّم لقضائه، وسالم أولياءه، واستسلم لشرعه.

وتوضيح ما لامحه بما يأتي:

القلب السليم: هو السالم من الآفات والمكروهات كلها، أي أنه الذي سلم من كل آفة تبعده عن الله، ومن كل إرادة تزاحم مراده، ومن كل قاطع يقطع عنه.

والقواطع جُملةً ترجع إلى خمسة أشياء: شرك يناقض التوحيد، وبدعة تخالف السنة، وشهوة تخالف الأمر، وغفلة تناقض الذكر، وهوى يناقض التجريد والإخلاص.

فهذه الخمسة حجبٌ عن الله، وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة، تتضمن أفرادا لا تكاد تنحصر.

القلب السليم: هو الذي حقّق التوحيد، فعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٩] ؛ قال: «شهادة أن لا إله إلا

الله»[١].

فهو سليمٌ مما سوى الله وأمرِه، لا يريدُ إلا الله، ولا يفعلُ إلا ما أمره الله، فالله وحده غايتُه، وأمرُه وشرعُه: وسيلتُه وطريقتُه، قد تخلَّص من شوائب الشرك، فهو فارغ من المخلوقات، خالٍ منها، غير ملتفت إليها؛ فسَلِم لربه وخَلَص له، كالعبد الذي سلم لمولاه؛ ليس له فيه شركاءُ متشاكسون.

وقد فسّر بعضهم قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٩] بأنه: «**الذي يلقى ربّه وليس فيه أحدٌ غيرُه**»[٢].

القلب السليم: هو الذي قد سلمَ لعبودية ربِّه حبًّا وخوفًا ورجاءً؛ وأسلمَ لربه انقيادًا وخضوعًا، وذُلًا، وآثر مرضاته في كل حال، وتباعد من سخطه بكل طريق.

القلب السليم: هو الذي أخلص عمله لله؛ فإن أحب أحَبَّ لله، وإن أبغض أبغض لله، وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله.

بالحق يسمع، وبالحق يبصر، وبالحق يبطش، وبالحق يمشي.

يحب من الأشياء ما يحبه الله، ويبغض منها ما يبغضه الله، ويوالي منها ما والاه الله، ويعادي منها ما عاداه الله، ويخاف الله فيها ولا يخافها في الله، ويرجو الله فيها ولا يرجوها في الله.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٨٣، وتفسير ابن كثير ٦/ ١٤٩.

(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة ٢/ ٣٨٥.

القلب السليم: هو السليم من الآفات التي تعتري القلوب المريضة؛ من مرض الشُّبهة التي توجب اتِّبَاع الظَّن، ومرض الشَّهْوَة التي توجب اتِّبَاع ما تهوى الأنفس، فلا استمتع بخلاقه كما استمتع به الذين يتبعون الشهوات، ولا خاض فى الباطل خوض الذين يتبعون الشبهات.

القلب السليم: هو الذي سلَّم للوحي؛ فلم تبقَ فيه منازعةٌ لأمر، ولا معارضةٌ لخبر؛ فانقاد للخبر تصديقًا واستيقانًا، وللطلب إذعانًا وامتثالًا.

القلب السليم: هو الذي سلَّم لأمر رسول الله ﷺ تصديقًا وطاعة، وسلِم من الانقياد والتحكيم لغيره، فعقد قلبه معه عقدًا محكما على الائتمام والاقتداء به وحده، وتلقى أحكامه بالمسالمة وترك المنازعة؛ فلم يعارضها برأي ولا قياس ولا تقليد، ولا رأى إلى خلافها سبيلًا البتة، وإنما الانقياد المحض، والتسليم والإذعان والقبول.

القلب السليم: هو الذي سلَّم في جميع أحكامه وأقواله وأعماله ظاهرًا وباطنًا لمشكاة النبوة، وعَرَض ما جاء مِن سواها عليها؛ فما وافقها قَبِلَه، وما خالفها ردَّه.

القلب السليم: هو الذي استسلَم لقضاء الله وقدره، فلم يتَّهِمْه سبحانه ولم يُنازِعْه، ولم يتسخَّط أقداره؛ إذ تستحيل سلامة القلب مع السَّخط وعدم الرضا، وكلما كان العبد أشد رضا بقدر ربه كان قلبه أسلم.

فالخُبث: قرين السَّخط، وسلامة القلب: قرينة الرضا.

القلب السليم: هو النقيُ من الغِلّ والدَّغل، الخالصُ من الغش والحقد والحسد.

يُضمر للمسلمين كل خير ونصح، ويَغْلِبُ على قلبه حُسنُ الظَّنِّ بالمؤمنين فِي كُلِّ مَا أمكنَ فيه العُذرُ.

قد سالمَ أولياء الله وحزبه المفلحين، وعادى أعداءه الضالين المضلين.

هذه بعض ملامح القلب السليم، فهنيئا لصاحبه؛ فما أسعد حاله ومآله!

يا من يُحدِّث نفسَه ... بدخول جنات النعيم
إن كنت متقيًا فأنـ ... ـت على الصراط المستقيم
لا ترجونَّ سلامةً ... من غير ما قلبٍ سليم
فاسلك طريق المتقين ... وظُنَّ خيرًا بالكريم[1]

(١) التبصرة لابن الجوزي ٢/ ٤٣.

القاعدة الثامنة:

القلبُ يمرض كما يمرض البدن[١]

من حكمة الله أن خلق كل عضو من أعضاء البدن لفعل خاص به، كمالُه في حصول ذلك الفعل منه، ومرضُه: أن يتعذر عليه الفعل الذي خُلق له، أو يصدر مع نوع من الاضطراب.

❍ **فمرضُ اليد:** أن يتعذر عليها البطش، ومرضُ العين: أن يتعذر عليها النظر، ومرض اللسان: أن يتعذر عليه النطق.

❍ **أما مرض القلب:** فأن يتعذر عليه ما خُلق له من معرفة الله ومحبته، والشوق إلى لقائه، والإنابة إليه، فلو عرف العبد كل شيء ولم يعرف ربه؛ فكأنه لم يعرف شيئا!

ولو نال كل حظوظ الدنيا ولم يظفر بمحبة الله والشوق إليه: لم يظفر -في الحقيقة- بلذةٍ ولا نعيمٍ ولا قرةِ عين.

وكل من عرف الله أحبه وأخلص العبادة له، ولم يؤثر عليه شيئا من المحبوبات؛ فمن آثر عليه شيئا من المحبوبات فقلبه مريض، كما أن المعدة إذا

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان ١/ ٢٤-٢٦، ١١٢، ومفتاح دار السعادة ١/ ٣٠٤، ومجموع الفتاوى ١٠/ ٩٤-٩٥.

اعتادت أكل الخبيث وآثرته على الطيّب سقطت عنها شهوة الطيّب، وتعوّضت بمحبة غيره.

ولا ريب أن أمراض القلوب أصعبُ من أمراض الأبدان وأخطر؛ لأنَّ غايةَ مرض البدن أن يُفْضي بصاحبه إلى الموت، وأمَّا مرضُ القلب فقد يُفْضي بصاحبه إلى الشقاء الأبدي!

❍ **وإذا تعاطى العبد أسباب مرض قلبه فمرِض:** فقد يعاقبه الله بزيادة مرضه؛ لإيثاره أسبابه وتعاطيه لها، قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة:١٠].

إن مرض القلب هو ضعفه وانحلاله، وخروجه عن صحته واعتداله، وصحته أن يكون عارفًا بالحق، محبًا له، مؤثرًا له على غيره.

❍ ***وأصل المرض في اللغة:*** الفساد؛ فمرض القلب نوعُ فسادٍ يحصل له، سببه استيلاء النفس الأمارة عليه؛ فيفسد تصوره حتى لا يرى الحق، أو يراه على خلاف ما هو عليه، أو تفسد إرادته بحيث يبغض الحق النافع ويحب الباطل الضار.

فعاد مرض القلب إما إلى ضعف علمه واعتقاده، وإما إلى ضعفِ عملِه وحركتِه.

وعليه فالقلبُ يعترضُه مرضان يتواردان عليه، إذا استحكما فيه كان هلاكُه وموتُه: مرض الشهوات، ومرض الشبهات؛ وهذان أصلُ داء الخلق، إلا من عافاه الله.

ويتفرع عنهما عِلَلٌ كثيرة؛ كالرِّياء والكِبْر، والعُجْبِ والحسد، والفخرِ والخُيلاء، وحبِ الرِّياسة والعلوِ في الأرض، وإدمان المعاصي وتعلق القلب والجوارح بالمحرمات.

❁ وقد ذكرَ اللهُ تعالى هذين المرضَيْن في كتابه:

❍ **أمَّا مرض الشبهات** -وهو أصعبُهما وأقتلُهما للقلب- ففي قوله تعالى في حقِّ المنافقين: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة:١٠] ، وقوله: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [المدثر:٣١] ، وقوله تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج:٥٣].

❍ **وأمَّا مرض الشهوات**، فجاء ذكره في قوله سبحانه: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب:٣٢] ، أي: لا تَلِنَّ بالكلام فيطمعَ الذي في قلبه ميل إلى الفجورٌ؛ فإن القلب الصحيح لو تعرضت له المرأة لم يلتفت إليها، بخلاف القلب المريض بالشهوة؛ فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه.

ولما كان البدن المريض يؤذيه ما لا يؤذى الصحيح -من يسير الحر والبرد ونحو ذلك- فكذلك القلب إذا كان فيه مرض: آذاهُ أدنى شيءٍ من شبهة أو شهوة، بحيث لا يقدر على دفعهما إذا وردا عليه، بخلاف القلب الصحيح.

ومن عجيب شأن القلب: أنه قد يمرض ويكون الألم كامنًا به، ولكن لفساد القلب لا يحس العبد به، بل قد يموت القلب وصاحبه لا يشعر بموته! لأن

سكرة الجهل والهوى تحول بينه وبين إدراك الألم، وإلا فألمه حاضرٌ فيه، وهو متوارٍ عنه باشتغاله بضده؛ وما لجرحٍ بميت إيلامُ!

وقد يشعر بمرضه، لكن يشتد عليه تحملُ مرارة الدواء والصبرُ عليها، فهو يؤثر بقاء ألمه على مشقة الدواء؛ فإن دواءه في مخالفة الهوى، وذلك أصعب شيء على النفس، وليس لها أنفع منه!

وليُعلم أن أمراضَ القلب كلَّها متولِّدةٌ عن الجهل، فالقلب يموت بالجهل المطلق، ويمرض بنوعٍ من الجهل، وأما الدواء فهو العلم -العلمُ بالكتاب والسنة-، كما قال النبيُّ ﷺ في حديث صاحب الشَّجَّة الذي أفتوه بالغُسل فمات: «**قتلوه قتلهم الله! ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العِي السؤال**»[(١)]؛ فجعلَ العِيَّ -وهو عِيُّ القلب عن العلم، واللسان عن النطق به- مرضًا، وشفاؤه سؤالُ العلماء.

ولهذا السبب كانت نسبةُ العلماء إلى القلوب كنسبة الأطبَّاء إلى الأبدان!

وما يقالُ للعلماء: «**أطبَّاءُ القلوب**» فهو لقَدْرٍ ما جامعٍ بينهما، وإلا فالأمرُ أعظمُ من ذلك! فقد يعيشُ الرجلُ عمره أو برهةً منه لا يحتاجُ إلى طبيب، وأما العلماءُ بالله وأمره فهم حياةُ الوجود وروحُه، ولا يُستغنى عنهم طرفةَ عين.

فحاجةُ القلب إلى العلم ليست كالحاجة إلى التنفُّس في الهواء، بل أعظَم! فالعلمُ للقلب مثلُ الماء للسَّمك؛ إذا فقده مات.

---

(١) أخرجه أبو داود ٣٣٧، وابن ماجه ٥٧٢، وأحمد ٣٠٥٦.

فنسبةُ العلم إلى القلب كنسبة ضوء العين إليها، وكنسبة سمع الأذن إليها، وكنسبة كلام اللِّسان إليه؛ فإذا عَدِمَه كان كالعين العمياء، والأذن الصَّمَّاء، واللِّسان الأخرس.

قال ابن رجب: (يا من مرِض قلبه: احمله إلى مجلس الذكر لعله أن يُعافى.

مجالسُ الذكر: «**مارَسْتانُ الذنوب**»، تُداوى فيها أمراضُ القلوب كما تُداوى أمراضُ الأبدان في مارَسْتانِ الدنيا)[(١)]!

❁ ختامًا..

إن أنفع الأغذية غذاءُ الإيمان، وأنفعُ الأدوية دواءُ القرآن.

ولهذا سمَّى اللهُ تعالى كتابَه شفاءً لأمراض الصدور، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧].

والقلب محتاجٌ إلى ما يحفظ عليه قوته؛ وهو الإيمان وأوراد الطاعات

وإلى حميةٍ عن المؤذي الضار؛ وذلك باجتناب المعاصي

وإلى استفراغه من كل مادةٍ فاسدة تعرض له؛ وذلك بالتوبة النصوح، واستغفار غافر الخطيئات.

---

(١) لطائف المعارف ٧٨. قال الفيروزآبادي: "المارَسْتانُ -بفتح الراء-: دارُ المرضَى، مُعَرَّبٌ". القاموس المحيط ٥٧٤. وهو المصحَّة -أو المستشفى- في زماننا. انظر: المعجم الوسيط ٢/ ٨٦٣.

إن الذنوب مشؤومة، عواقبها ذميمة، وعقوباتها أليمة، والقلوب المحِبة لها سقيمة، والسلامة منها غنيمة، والعافية منها لا تُقَدّر لها قيمة، والبليه بها: داهيةٌ عظيمة!

ما هلاك النفوس إلا المعاصي ... فاجتنب ما نهاك لا تقربَنْهُ
إن شيئًا هلاكُ نفسكَ فيهِ ... ينبغي أن تصون نفسك عنهُ[1]

إن مرض القلب بالذنوب مثلُ مرض الجسم بالأسقام، والتوبةُ بمنزلة شرب الدواءِ.

وليس يستغني العبد عن علاجين ناجعين: محاسبةِ النفس، ومخالفتِها.

فهلاكُ القلب من إهمال محاسبة النفس، ومن اتباع هواها، وما أحسن ما قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**إن العبد لا يزال بخيرٍ ما كان له واعظٌ من نفسه، وكانت المحاسبة من همته**»[2].

(١) لطائف المعارف ٢٧٣.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس ٦، وأخرجه -باختصار-: ابن المبارك في الزهد ١١٠٣، وبنحوه: أبو نعيم في الحلية ٢/ ١٤٥.

القاعدة التاسعة:

للقلوب أحوالٌ وآفاتٌ[١]

كما أن الله سبحانه جعل حياة البدن بالطعام والشراب؛ فحياة القلب بدوام ذكر الله، والإنابة إليه، وترك الذنوبِ والغفلةِ الجاثمةِ على القلوب.

لا يُلَم شعثُ القلوب بشيءٍ غيرِ الإقبال على الله والإعراض عما سواه، فهناك يُلَمُ شعثُه، ويزولُ كدرُه، ويصحُ سفره، ويستروحُ عبير الحياة، ويذوقُ طعم السعادة!

والتعلقُ بالرذائل والشهوات المحرمة يضعف هذه حياته، ولا يزال الضعف يتوالى على القلب حتى يموت، وعلامة موته: أنه لا يعرف معروفا، ولا ينكر منكرا

❍ **والعاقل الناصح لنفسه:** هو الذي يخاف مرض قلبه وموتَه أعظم مما يخاف على بدنه، وأكثرُ الخلق حالهم بالعكس؛ فلا يبالون بموت قلوبهم ولا مرضها، ولا يعرفون من الحياة إلا الحياةَ الطبيعية، وذلك من موت قلوبهم وأرواحهم؛ فإن هذه الحياة الطبيعية شبيهةٌ بالظل الزائل، والنباتِ سريع الجفاف، والمنامِ الذي يُخيّل كأنه حقيقة، وعند الاستيقاظ يتبين أنه كان خيالا!

وصدق من قال:

---

(١) انظر: مدارج السالكين ٣/ ٩٥، ٢٤٨، ٢٥٦.

والعيشُ نومٌ، والمنيةُ يقظةٌ والمرءُ بينهما خيالٌ ساري[١]!

رُوي عن بعض السلف أنه قال: «**لو أن الحياة الدنيا من أولها إلى آخرها أُوتيها رجل واحد، ثم جاءه الموت: لكان بمنزلة من رأى في منامه ما يسرُّه، ثم استيقظ فإذا ليس في يده شيء!**»[٢].

إن مما ينبغي أن يُعلم: أن القلوب ذات أحوال وتقلبات، وتصيبها أمراض وآفات، وتتنوع صفاتها، وتتحول أحوالها.

وهذه الحقيقة تُخيف المؤمن، وتحثه على أن يفتش في قلبه، ويتفكر في حاله، ويعالج داءه.

إن القلوب تعمى وتبصر؛ فالقلبُ يوصفُ بالبصر والعمى، وعَمَاهُ أبلغ من عمى العين، بل هذان له في الأصل وللعَيْن تبع، فإذا لم يُبصر القلبُ؛ فصاحبُه أعمى مفتوحُ العين!

قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

❍ **وعمى القلب:** أن لا يبصر الحق؛ لما يغشاهُ من رين الذنوب.

وعمى القلوب درجاتٌ بحسب الذنوب، والعمى التامُّ: وصف القلوب

---

(١) من قصيدة لعلي بن محمد التهامي يرثي بها ابنه. انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر ٤٣/ ٢٢٣.

(٢) نسبه ابن القيم في مدارج السالكين -في موضعين ٣/ ٩٢، ٢٤٨- إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

الكافرة!

❍ **والقلوب تقسُو -أو تغلُظ- وتلين**؛ حتى إنها قد تبلغ قسوةَ الحجارة أو أشد، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة:٧٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

❍ **والقلبُ الغليظ القاسي**: قلبٌ حجري لا رحمة فيه ولا إحسان ولا بِر، بل هو جبار جاهل؛ لا علم له بالحق، ولا رحمة فيه للخلق.

وشتان بين هذه القلوب القاسية الغليظة، وقلوب أهل السعادة اللينة المخبتة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٣]، وقال سبحانه: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج:٥٤].

❍ **والقلوب يُطبع عليها -ويُختم- وتسلم من هذا**، قال تعالى: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف:١٠٠]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ [الأنعام:٤٦].

❍ **والقلوب تتنجس وتتطهر**، قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة:٤١].

والقلب النجس لا يغتذي إلا بالأغذية التى تناسبه؛ بحسب ما فيه من النجاسة، فهو كالبدن المريض؛ لا تلائمه الأغذية التى تلائم الصحيح.

وقد حرم الله سبحانه الجنة على مَن في قلبه نجاسةٌ وخبث، ولا يدخلها -إذا كان معه أصل الإيمان- إلا بعد طِيبه وطُهره[(١)]؛ فإنها دار الطيبين، ولذا يقال لهم: ﴿طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر:٧٣].

❍ **أما القلب الطاهر**؛ فكامل الحياة والنور، قد تخلص من الأدران والخبائث، لا يشبع من القرآن والسنة، ولا يغتذي إلا بحقائقهما، ولا يتداوى إلا بأدويتهما.

وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر:١-٤]، وأكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب ههنا: القلب، والمراد بالتطهير: إصلاح النفس والأعمال والأخلاق، وتنزيهها عن الذنوب[(٢)].

«**والتطهير عن الذنب** [في الآية] **إما بأن لا يفعله العبد، وإما بأن يتوب منه**»[(٣)].

وما طهارة الثوب الحسي وطيبُ مكسَبه إلا تكميلٌ لطهارة قلبه.

---

(١) إما بمحض عفوه سبحانه ومغفرته، أو بعذابٍ في النار يسبق دخوله الجنة. وأما الكافر: فنجاسته دائمة لا تزول؛ فلا يتطهر أبدا، ولذا فعذابه دائمٌ لا ينقطع.

(٢) انظر: تفسير الطبري ٢٣/ ٤١٠، وتفسير ابن عطية ٥/ ٣٩٢، ومختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية ١٧٣، وجامع المسائل – المجموعة الرابعة ٢٢٥، وإغاثة اللهفان ١/ ٨٦، ومدارج السالكين ٢/ ٢٢.

(٣) منهاج السنة ٧/ ٨٠.

❍ **والقلوب تفسد وتصلح**؛ قال ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت، صلح الجسد كله، وإذا فسدت، فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»(١).

وأين القلب الصالح من القلب الفاسد!

❍ **والقلوب تَسْوَد وتَبيضّ**؛ فتصيرُ سوداء مظلمة لتراكم الذنوب عليها، أو بيضاء منيرة بتوحيد الله وطاعته.

وقد وصف النبي ﷺ القلوب بأنها تؤول إلى قلبين: أبيض وأسود؛ فقال: «**تُعرض الفتنُ على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأيُّ قلبٍ أُشْرِبها نُكِتَ فيه نُكتةٌ سوداء، وأي قلب أنكرها نُكِتَ فيه نُكتةٌ بيضاء، حتى تصير على قلبين؛ على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنةٌ ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسودُ مُرْبَادًّا، كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا، لا يعرف معروفا ولا يُنكر منكرًا إلا ما أُشرب من هواه**»(٢).

والحصيفُ هو الذي يغوص في أعماق قلبه ليعلم: أهو قلب أبيض أم أسود؟!

---

(١) أخرجه البخاري ٥٢، ومسلم ١٥٩٩.

(٢) أخرجه مسلم ١٤٤. ومعنى: "نُكت فيه نُكتة": أي نُقِط فيه نُقطة، و"الصفا": الحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء، و"المرباد": مفعالٌ من الرُّبْدَةُ: وهي لون بين البياض والسواد والغُبرة، مثل لون الرماد، وعليه فمعنى "أسود مُربادّا": أي هو مُسوَدٌّ سوادا مختلطا بكُدرة، و"الكوز": الإناء، و"مُجخيا": أي منكوسا أو مائلا؛ فشبَّه القلبَ الذي لا يعي الخير بالإناء المائل الذي مهما سكبت فيه شيئا فلا يستقر فيه، وكذلك هذا القلب؛ مهما بلغه من الحق فلا يثبت فيه شيء منه.

❍ **والقلوب تغفَل وتتيقظ**؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الكهف:٢٨] ،

والغفلة نومُ القلب وحِجابُه، فلا يطلبُ حياتَه ونورَه، وكثيرٌ من الأيقاظ في الحس نيامٌ في الواقع، تحسبهم أيقاظا وهم رقود!

والقلبُ الغافلُ مأوى الشيطان؛ فإنه وَسواسٌ خنَّاس، قد التقمَ قلبَ الغافل يقرأ عليه أنواعَ الوساوس والخيالات الباطلة، فإذا تذكَّر العبدُ وذكرَ اللهَ خَنَسَ الشيطان، فهو -دائمًا- بين الوسوسة والخَنْس، كما أنه يترقب -دائمًا- غفلةَ العبد، فيبذُر في قلبه بِذرَ الأماني والشهوات، فتثمرُ كل شوكٍ وبلاء، ولا يزالُ يمده بسَقْيِه حتى يغطِّي القلبَ ويُعْمِيه.

إن أبدانَ الغافلين قبورٌ لقلوبهم، وقلوبهم فيها كالأموات في القبور! كما قيل:

فنسيانُ ذكر الله موتُ قلوبهم ... وأجسامهم قبل القبور قبورُ

وأرواحهم في وحشةٍ من جسومهم ... وليس لهم حتى النشور نشورُ[(١)].

❍ **والقلوب تزيغ وتستقيم**، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾ [الصف:٥].

وإزاغة القلب: إمالته، وزيغه: ميله عن الهدى إلى الضلال، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ

(١) مدارج السالكين ٢/ ٤٠٢. وأورده ابن القيم في بعض كتبه بنحوه، وهو -بنحوه أيضا- في أدب الدنيا والدين ٣٧. وهو في جميع هذه المواضع بلا نسبة.

﴿قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران:٨].

❍ **والقلوب تتقلب وتثبت**، والتقليب تحويل الشيء من وجهٍ إلى وجهٍ، قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠].

وقال ﷺ: «**لَقَلْبُ ابْنِ آدَمَ أَشَدُّ انْقِلَابًا مِنَ الْقِدْرِ إِذَا اجْتَمَعَتْ غَلْيًا**»(١).

قال ابن مسعود رضي الله عنه: أكثر ما كان النبي ﷺ يحلف: «**لا، ومقلب القلوب**»(٢).

مـا سُـمِّي القلـبُ إلاَّ مِـنْ تقلُّبِـه فاحـذَرْ علـى القَلـبِ مـن قَلْـبِ

وتقلب القلب -الذي خافهُ المتقون-: أن ينقلب عن طريق الهداية إلى طريق الغواية؛ فيزيغ بعد الاستقامة، ويعمى بعد الإبصار!

وكل ذلك بيد الله سبحانه، فلا يكون إلا ما يشاء؛ فهو الذي يُقلِّب القلوب ويصرفها كيف يشاء، ولا يشاء العبد إلا ما شاء ربه، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال:٢٤].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٢٣٨١٦. وفي هذا المعنى: حديث أبي موسى: «**إِنَّمَا سُمِّيَ الْقَلْبُ مِنْ تَقَلُّبِهِ، إِنَّمَا مَثَلُ الْقَلْبِ كَمَثَلِ رِيشَةٍ مُعَلَّقَةٍ فِي أَصْلِ شَجَرَةٍ تُقَلِّبُهَا الرِّيحُ ظَهْرًا لِبَطْنٍ**». أخرجه أحمد في مسنده ١٩٦٦١. وقد اختلف في رفعه ووقفه.

(٢) أخرجه البخاري ٦٦١٧. وأخرج أيضا -٦٦٢٨- عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كانت يمين النبي ﷺ: «**لا ومقلب القلوب**».

(٣) الدر المصون للسمين الحلبي ١/ ١١٤.

والعباد دائرون بين توفيقه -سبحانه- وخِذلانه؛ فهو الذي يُقبل بقلوب أوليائه إليه، ويُزيّن الإيمان فيها، ويُثبتهم فضلًا.

وهو الذي يَصرِف قلوب أعدائه ويُزيغها ويُثبطهم عدلًا.

وله في هذا وهذا حكمة بالغة، وهو أعلم بمواضع فضله ومواضع عدله، وما الله يريد ظلما للعالمين.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنه سمع رسول الله ﷺ، يقول: «**إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلبٍ واحد، يُصرِّفه حيث يشاء**»، ثم قال رسول الله ﷺ: «**اللهم مُصرفَ القلوب صرِّف قلوبنا على طاعتك**»[(١)].

○ **والقلوب يُقفل عليها**، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد:٢٤].

والقلب المقفل قد أُغلق على ما فيه من الشر، فلا يدخله خيرٌ أبدًا، شأنه شأن الصندوق المقفل بالأقفال القوية؛ أنى يجد الخيرُ إليه سبيلا!

وبعد.. فهذه نبذة عن أحوال القلوب؛ فهنيئا لمن عوفي من أمراض قلبه وأسقامه، ورَفَل في أثواب العافية، وفاز بقلب سليم، وكان من المنعَم عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

---

(١) أخرجه مسلم ٢٦٥٤.

القاعدة العاشرة:

قسوة القلب أعظمُ عقوبة، وأكبر مصيبة![1]

قسوةُ القلب عقوبةٌ وأيُّ عقوبة، ومصيبةٌ وأيُّ مصيبة؛ يُجازَى بها العبد على ما اقترفت يداه، قال مالك بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**ما ضُرب عبدٌ بعقوبة أعظم من قسوة القلب**»[2].

وقال حُذيفة المرعشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**ما أصيب أحدٌ بمصيبة أعظم من قساوة قلبه**»[3].

وتعظم المصيبة حين لا يستشعر قاسي القلب قسوة قلبه! فالله المستعان.

وقد ذم الله سبحانه قساة القلوب فقال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة:٧٤]

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد:١٦].

---

(١) انظر: مجموع رسائل ابن رجب ١/ ٢٥٩-٢٦٠، والفوائد ٩٧، وبدائع الفوائد ٣/ ١٢٠٠.

(٢) أخرجه أحمد في الزهد ٢٥٩، وابن أبي الدنيا في العقوبات ٦٧، وأبو نعيم في الحلية ٦/ ٢٨٧، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ١/ ٧٠٠.

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٨/ ٢٦٩.

وتوعدهم سبحانه فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر:٢٢]، وتأمل في الآية هذا الاقتران بين الضلال وقسوة الْقلب.

إن قسوة القلب هي ذهاب اللين والرحمة والخشوعِ منه.

❍ **والقلب القاسي:** هو اليابس الصلب الحجري، الغليظ الجافي، الذي لا يقبل الحق ولا التزكية، ولا تُؤثِّرُ فيه النصائح، ولا ينتفع بالعلم؛ فهو كالأرضُ الصلبة؛ لو أصابها كلُّ مطر وبُذِرَ فيها كلُّ بَذْر ما أنبتت شيئا!

إذا قَسَا القَلْبُ لَمْ تَنْفَعْهُ مَوْعِظَةٌ ... كالأرضِ إنْ سَبخَتْ لَمْ يحْيِهَا الْمَطَرُ[(١)]

❍ **وإذا قسا الْقلب:** قحطت العين عن البكاء من خشية الله، وتكاسلت الجوارح عن طاعته، **فأبعد الْقُلُوب من الله الْقلب القاسي!**

قال مَالِكَ بْنَ دِينَارٍ: «**أربع من عَلَمِ الشقاوة: قسوة القلب، وجمود العين، وطول الأمل، والحرص على الدنيا**»[(٢)].

وأسبابُ قسوة القلب كثيرة:

❍ **منها:** نقض العهد مع الله تعالى، قال عز وجل: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة:١٣].

قال ابنُ عقيل الحنبلي: «**يا من يجد من قلبه قسوة، احذر أنْ تكون نقضت**

---

(١) أورده ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ١/ ٧٠٠، ونسبه إلى ابن عائشة.

(٢) أخرجه ابن الأعرابي في الزهد ٤٧.

عهدًا؛ فإنَّ الله يقول: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ [النساء:١٥٥] **الآية»**[(١)].

❍ **ومنها:** كثرةُ الكلام والضَّحك؛ ففي الترمذي، عن النبي ﷺ قال: «**لا تُكْثِرِ الضَّحِكَ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ**»[(٢)].

❍ **ومنها:** كثرةُ الأكل، ولا سيما إنْ كان من الشُّبهات أو الحرام؛ قال بشر بن الحارث: «**خصلتان تُقسِّيان القلب: كثرةُ الكلام، وكثرة الأكل**»[(٣)].

قال ابن القيم: «**قسوة الْقلب من أَرْبَعَة أَشْيَاء إِذا جَاوَزت قدر الْحَاجة: الْأكل وَالنَّوْم وَالْكَلَام والمخالطة**»[(٤)].

❍ **ومنها** -بل أعظمها-: الذنوب! قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤].

وقال النبي ﷺ: «**إِنَّ العَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤]**»[(٥)].

---

(١) مجموع رسائل ابن رجب ١/ ٢٦١.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٣٠٥، وابن ماجه ٤١٩٣، وأحمد ٨٠٩٥.

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٨/ ٣٠٥. وفي الشعب للبيهقي ٧/ ٤٧٧ بإسناده إلى بشر بن الحارث قال: "قال الفضيل بن عياض: خصلتان تقسيان القلب: كثرة النوم، وكثرة الأكل".

(٤) الفوائد ٩٧.

(٥) أخرجه الترمذي ٣٣٣٤، وابن ماجه ٤٢٤٤، وأحمد ٧٩٥٢. وفي بعض المصادر: "صُقل قلبه"، وسقل وصقل لغتان في هذه الكلمة، والمعنى: رفع الله تلك النكتة؛ فينجلي قلبه.

قال بعضُ السلف: «**القلبُ إذا قلَّت خطاياه: أسرعت دمعتهُ**»(١).

وفي هذا المعنى يقول ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ الْقُلُوبَ ... وَيُورِثُكَ الذُّلَّ إِدْمَانُهَا

وَتَرْكُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ ... وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُهَا(٢)

وأمَّا مزيلاتُ القسوة، فمتعددة أيضاً:

فمنها: كثرةُ ذكر الله؛ أعني الذكرَ الَّذِي يتواطأ عليه القلب واللسان.

فما أُذيبت قسوة القلوب بمثل ذكر الله عز وجل، فمن داوى قلبه بذكر ربه: وجد حياته ورِقَّته.

قال رجل للحسن البصري: يا أبا سعيد، أشكو إليك قسوة قلبي! قال: «**أَذِبْهُ بالذكر**»(٣).

وهذا لأن القلب كلما اشتدت به الغفلة؛ اشتدت به القسوة، فإذا ذكر الله تعالى ذابت تلك القسوة كما يذوب الرصاص في النار.

قال بعض العلماء: «**لم نجد شيئًا أرق لهذه القلوب ولا أشد استجلابًا للحق من قراءة القرآن لمن تدبره**»(٤).

---

(١) مجموع رسائل ابن رجب ١/ ٢٦٢.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ١/ ٦٣٧.

(٣) روضة المحبين ١٦٧، والوابل الصيب ٧١.

(٤) مجموع رسائل ابن رجب ١/ ٢٦٣.

والأصل في إزالة قسوة القلوب بالذكر قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

وقولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر:٢٣].

❍ **ومنها:** الإحسانُ إلَى اليتامى والمساكين؛ فقد شكا رجل إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَسْوَةَ قَلْبِهِ، فقال ﷺ: «**إِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ فَامْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ وَأَطْعِمِ الْمِسْكِينَ**»(١).

سأل رجلٌ الإمام أحمد ابن حنبل فَقَالَ له: كيف يرقُّ قلبي؟ قال: «**ادخل المقبرة، وامسح رأس اليتيم**»(٢).

❍ **ومنها:** كثرةُ ذكر الموت؛ وكان غيرُ واحد من السلف -كسعيد بن جُبير، وربيع بن أبي راشد- يَقُولُونَ: «**لو فارق ذكرُ الموت قلوبنا ساعةً لفسدت قلوبُنا**»(٣).

❍ **ومنها:** زيارةُ القبور بالتفكر في حال أهلها ومصيرهم؛ وقد قال النبي ﷺ: «**زُورُوا الْقُبُورَ؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ المَوْت**»(٤).

وقال ﷺ: «**كُنْتُ قَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، ثُمَّ قَدْ بَدَا لِي أَنَّهَا تُرِقُّ الْقَلْبَ**

---

(١) أخرجه أحمد ٧٥٧٦، وقال ابن رجب: "إسناده جيد". مجموع رسائله ١/ ٢٦٤.
(٢) مجموع رسائل ابن رجب ١/ ٢٦٥.
(٣) مجموع رسائل ابن رجب ١/ ٢٦٥.
(٤) أخرجه مسلم ٩٧٦.

وَتُدْمِعُ الْعَيْنَ وَتُذَكِّرُ الْآخِرَةَ، فَزُورُوهَا وَلاَ تَقُولُوا هُجْرًا»[(١)].

وسبق جواب الإمام أحمد للذي سأله ما يُرقُّ قلبي؟ قال: «**ادخل المقبرة**».

اللهم اسلل سخيمة قلوبنا، واجعلنا لك مخبتين أوّاهين منيبين، ونعوذ بك اللهم من قسوة القلب، وضيق الصدر.

اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين.

اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، واصرفها إلى طاعتك، واملأها نورا.

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

(١) أخرجه أحمد ١٣٤٨٧.

المقدمة ٣
القاعدة الأولى: زكاةُ القلبِ مثلُ نماءِ البدن ٦
القاعدة الثانية: القلب إذا امتلأ بشيءٍ لم يبقَ فيه متسعٌ لغيره ١١
القاعدة الثالثة: القلب لا يتسع للعِوض والمعوَّض عنه ١٦
القاعدة الرابعة: القلب هو الأصل، والجوارح تبع ٢٢
القاعدة الخامسة: الغِنى غِنى القلب ٢٧
القاعدة السادسة: إذا استغنى القلبُ بالخالق: استغنى عن المخلوق ٣٢
القاعدة السابعة: القلبُ السليمُ في جَنَّة معجَّلة ٣٨
القاعدة الثامنة: القلبُ يمرض كما يمرض البدن ٤٣
القاعدة التاسعة: للقلوب أحوالٌ وآفاتٌ ٤٩
القاعدة العاشرة: قسوة القلب أعظمُ عقوبة، وأكبر مصيبة! ٥٧
أسبابُ قسوة القلب ٥٨
مزيلاتُ القسوة ٦٠

مشروع

حسن بن علي الهاجري

-رحمه الله تعالى-

لطباعة الكتب السلفية

غفـــر الله لـــه

وكل من شارك وساهم

ولوالديهم والمسلمين

تواصل معنا عبر تويتر

SalfiBooks

للتواصل **55558200**

واتساب **99753999**

إمسح QR-Code للإطلاع

على المكتبة الإلكترونية